KWASU Journal of Humanities 2:4 (2022)

آراء ابن عادل الدمشقي في خلق آدم عليه السلام والجن

حسين أحمد علي الساكت

VIEWS OF BN ‘ĀDIL ALDAMASHQĪ ON THE CREATION OF ADAM (AS) AND THE JINN

Husain Ahmad Ali Al-Sakit•

ملخص:

اعتمد ابن عادل الدمشقي في كتابه اللباب في علوم الكتاب على من سبقوه من المفسرين وخاصة الفخر الرازي والزمخشري، فكان يأتي بالمسائل التي تدور حولها الاستفهامات ثم يأتي برأيه أو برأي من يراه صوابا. فَيهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على مسائل بعينها وهي ما تتعلق بخلق آدم عليه السلام وأمر سجود الملائكة له، وإبليس وإغوائه آدم وزوجه، ويحتوي البحث على جوانب كثيرة في هيئة أسئلة وأجوبة، ليصل إلى نتائج مهمة تبرز ما كان عليه أولئك الأفذاذ من المفسرين، الذين كانوا يحملون فكرا تحليليا يجلي الحقائق، فلولا تلك الأسئلة والاستفهامات، لما تنور الحقل المعرفي التفسيري. فقد اختار الباحث تفسير اللباب في علوم الكتاب بسبب أنّ هذا مؤلفه لم ينل حظا وافرا من الدراسات كما حظي المفسر القرطبي وغيره من المفسرين، وعلى ذلك فإن أهمية هذا البحث كامنة في أنّه يعالج مشكلة تفرق الأسئلة والاستفهامات في كتب التفسير، وخاصة في كتاب اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي، فيستقصيها ويجمعها ويلخصها، وإن كان ابن عادل قد أسهب شرحا إلا أن هذا البحث يقتصر في ذلك دون إخلال بجوانب المسألة، ليصل إلى هدف إحاطة طلبة العلم بالمسألة في مكان واحد بالمنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، وذلك بأن يتتبع المواقع التي تتعلق بالمسألة والتي وردت فيها أسئلة ابن عادل الدمشقي، وإجاباته عنها، ثم يقوم بالتحليل في حال ما إذا احتاجت المسألة إلى ذلك، معتمدا على كتاب اللباب مصدرا أساسيا وكتب التفسير الأخرى، وجميع ما يصله جهد الباحث من مراجع. كما سيحاول البحث الإجابة عن أسئلة منها: أنّ هناك لبسا عند بعض الناس حول السجود المأمور به من الله إلى إبليس كيف يكون وهل هو سجود عبادة أم غير ذلك، ثم تبيان آراء المفسرين والعلماء في المفاضلة بين الأنبياء والملائكة، كما يشمل تحديد جنس إبليس والاستفهامات حوله، وطرق وسوسته، وأخيرا هل كان ابن عادل ذا رأي مستقل في هذه المسائل.

Abstract

The stories of the creation of Prophet Adam and the prostration of the Angels and the Satan for him has generated a hot debate among the Muslim scholars, especially the exegists (almufassirūn). Ibn Ādil Aldamashqī is one of those scholars who actively participated in the debate through the examination of the Interrogative Terms that are related to the stories in the Holy Qur'an, to arrive at his own view. This paper aims at shedding light on issues related to the creation of Prophet Adam (AS), the prostration of the Angels for him and the allurement of the Satan for Adam and his wife. The author applied the Question and Answer method to address the divergent opinions of the Qur'an exegists, especially Alfakhr Al-rāzī and Alzamakhsharī. Ibn ‘Ādil Aldamashqī's book, Al-lubāb fī 'Ulūm Al-kitāb, was used as a case study.

مقدمة

منذ نزول القرآن الكريم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والشبهات تأتي من كل حدب وصوب، فتارة تجدها في العقائد، وتارة في النصوص، وأخرى عن طريق التحدي وطلب المعجزات، حتى صارت بعض أسئلتهم المشككة من الكثرة بمكان، ما جعل كثيرا من المفسرين ينحون إلى ابتكار أسلوب في التفسير صارت ظاهرة بينهم، وهي أنهم يفترضون أسئلة حول معنى من المعاني أو قضية من القضايا، قد تكون هذه الأسئلة مما قد سمعوها، أو يفترضونها موجودة في أذهان الناس، أو أن أحدا يوما ما سيسألها، فيسردون السؤال ثم يذهبون في إيراد الإجابات حولها، وكان المفسر ابن عادل الدمشقي من بين هؤلاء الأفذاذ الذين أسهموا بجهد كبير في هذا المنهج، وكتابه اللباب في علوم الكتاب مكتظ بهذا الضرب من الأسئلة، فقد بلغت أسئلته في سورة البقرة وحدها نيفا وثلاثمائة سؤال. وقد اختار الباحث الأسئلة المتعلقة بالعقيدة وترك الأسئلة الفقهية واللغوية، والسبب في ذلك أنّه يدرس في دولة يكثر فيها غير المسلمين، بل وفي كل يوم يدخل في الدين الإسلامي الكثير من غير المسلمين، ومهم ان يعرفوا مسائل عقدية، تتنور بها عقولهم وترسخ عقيدتهم، ولعل الله جل وعلا يجعل لهذا البحث من يترجمه إلى لغتهم، فضلا أن المسلمين وغير المسلمين يتناولون موضوع هذا

• Lecturer of ‘Ulum Al-Qur’an at Sabha University, Libya. **Email**: issakettunis@gmail.com

البحث، وأحسب أنهم في جدل دائم فيه، وما ذلك إلا لنقص في الشروح، والبحوث المختصرة، فالباحث إذ يتقدم بهذا البحث ليسأل الله أن يسد نقصا ويكسب أجرا.

بيان معنى السجود وكيفيته:

قوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ" البقرة 34. في هذه الآية مسائل كثيرة، وذلك لمن أراد التحليل الكامل، إلا أن البحث يقتصر على مسائل معينة ذكرها ابن عادل الدمشقي.

أمر السجود لآدم عليه السلام:

لعل سائلا يسأل: أ الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله –تعالى– خلقه آدم بدليل قوله: "إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" (الحجر 29)، فظاهر هذه الآية يدل على أن آدم –عليه الصلاة والسلام– لما صار حيا صار مسجودًا له من قبل الملائكة؛ لأن "الفاء" في قوله: "فقعوا" للتعقيب، وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء، ومناظرته مع الملائكة في ذلك الوقت حصل بعد أن صار مسجودًا له، أي تم الخلق فالسجود أولا فتعليم الأسماء.

فيجيب ابن عادل (ابن عطية، 124): أجمع المفسرون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة، ثم اختلفوا على ثلاثة أقوال:

الأول: أن ذلك السجود كان لله –تعالى– وآدم –عليه السلام– كان كالقبلة، وطعنوا في هذا القول من وجهين:

الطعن الأول: أنه لا يقال: صليت للقبلة، بل يقال: صليت إلى القبلة، فلو كان –عليه الصلاة والسلام– قِبلة لقيل: اسجدوا إلى آدم.

الطعن الثاني: أن "إبليس" قال: "أرأيتك هذا الذي كرمت علي" (الإسراء 62) أي: أن كونه مسجودا له يدل على أنه أعظم حالا من الساجد، ولو كان قبلة لما حصلت هذه الدرجة بدليل أن محمدا – عليه الصلاة والسلام – كان يصلي إلى الكعبة، ولم تكن الكعبة أفضل من محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والجواب عن الأول: أنه كما يجوز أن يقال: صليت إلى القبلة، جاز أن يقال: صليت للقبلة ولا فرق؛ قال تعالى: "أقم الصلاة لدلوك الشمس" (الأنعام 77) والصلاة لله لا للدلوك. (ابن عادل: 300/1).

والجواب عن الثاني: لا يرى ابن عادل الدمشقي أن التكرم حصل بمجرد ذلك السجود، بل لعله حصل بذلك مع أمور أخرى. (ابن عادل: 300/1).

الثاني: أن السجدة كانت لآدم تعظيما له وتحية له كالسلام عليه، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك. قال قتادة: قوله: "وخروا له سجدا (يوسف 100) كانت تحية الناس يومئذ. (ابن عادل: 301/1).

الثالث: أن السجود في اللغة، هو الانقياد والخضوع، ومنه قوله تعالى: "والنجم والشجر يسجدان" (الرحمن 6). واعلم أن القول الأول ضعيف، لأن المقصود تعظيم آدم عليه الصلاة والسلام، وجعله مجرد القبلة لا يفيد تعظيم حاله. (ابن عادل: 304/1). ضعيف أيضا؛ لأن السجود في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك؛ لأن الأصل عدم التغيير. (ابن عادل: 304/1).

وقد يتبادر إلى الذهن بأن السجود المأمور به هو كالذي في الصلاة، أي على اليدين والركبتين والقدمين والجبهة، وإن فعَلَه المخلوق لا يمكن إلا أن ينصرف إلى سجود العبادة، والذي يظهر في صلاة المسلمين، المأمور به من الله جل وعلا، إلا أنّ للأمر وجها آخر يتناوله المفسرون فيقولون: "لا ينبغي أن يقال إنه عبادة؛ لأن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيدا كالقول، كقيام أحدنا لغيره يفيد من الإعظام ما يفيده القول، وما ذاك إلا للعادة" (ابن عادل: 304/1) ، أي أن الناس اعتادوه في تحياتهم وإبداء التوقير كما يحدث في بعض الدول الأفريقية مثلا وغيرها، وإذا ثبت ذلك لم يمتنع أن يكون في بعض الأوقات سقوط الإنسان على الأرض وإلصاقه الجبين بها مفيدا ضربا من التعظيم، وإن لم يكن ذلك عبادة...إلا أن الباحث لم يجد من يبيح السجود لغير الله، بل المسألة مختلفة في كون فاعل السجود للتحية وليس للعبادة متردَّد بين الكفر والمعصية، والراجح عند الباحث أنه عاص لا كافر، بدليل أن معاذ بن جبل لما قدم من الشام وكان قد رأى أهل الشام يسجدون للأساقفة، فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا معاذ؟ قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلا تفعلوا. رواه ابن ماجه، وصححه الألباني. ولم يعرف أن سجودا لغير الله وقع بعد ذلك، ما أمر الله الملائكة بالسجود لا يمتد إلى غير تلك الواقعة، لبيان ما يتناوله هذا البحث من اختلاف في المرتبة بين المخلوقات، ولا يجوز اتخاذ المسألة ذريعة لتشريع السجود لغير الله. والله أعلم.

المفاضلة بين الأنبياء والملائكة:

لمن تكون الأفضلية في كل شيء أمر من متطلبات الفطرة، فإن فرّ رجل من أسد ثم وجد أمامه طريقين فاختار أحدهما، فاختياره قد بني على مفاضلة وإن كانت سريعة ومتعجلة، وهكذا في كل شيء، فاختيار المولى للملائكة أن تسجد هو اختياره، وقد لا ندرك كنهه ولا أسبابه، لكن عقل البشر ناقش المسألة بما أوتي من أدوات، فذهب المفسرون إلى أقوال شتى نستعرض أهمها في مباحث. وفيما يلي آراء جمعها ابن عادل الدمشقي وجعلها الباحث في مطلبين:

ذكر الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة في المسألة:

قال أكثر أهل السنة: الأنبياء أفضل من الملائكة. (ابن عادل: 304/1). وقالت المعتزلة: الملائكة أفضل من الأنبياء، وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني. (البخاري الشافعي: 232). قالوا: عبادات الملائكة أشق من عبادات البشر، فيكونون أكثر ثوابا من عبادات البشر، فإن الملائكة سكان السماوات، حيث الجنات والنعيم،

وهم آمنون من المرض والفقر والقهر وغير ذلك مما ابتلي به الإنسان، ثم إنهم مع استكمال أسباب النعم لهم خاشعون وجلون كأنهم مسجونون لا يلتفتون إلى نعيم الجنات بكامل إرادتهم، لكنهم يقبلون على الطاعة الشاقة، ولا يقدر أحد من بني آدم أن يبقى كذلك يوما واحدا فضلا عن تلك العصور المتطاولة، ويؤيده قصة آدم – عليه الصلاة والسلام – فإنه أطلق له الأكل في جميع مواضع الجنة، ثم إنه منع من شجرة واحدة فلم يملك نفسه. وأضافوا: أن انتقال المكلف من نوع عبادة إلى نوع آخر كالانتقال من بستان إلى بستان، أما الإقامة على نوع واحد، فإنما تورث المشقة والملل، والملائكة كل واحد منهم مواظب على عمل واحد لا يعدل عنه إلى غيره، فكانت عبادتهم أشق، فيكون أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام: "أفضل الأعمال أحمزها" أي: أشقها، وقوله لعائشة: "إنما أجرك على قدر نصبك".

وهذه الأقوال كلها معارضة بأن أسباب البلاء مجتمعة على البشر، ومع هذا يرضون بقضاء الله، ولا تغيرهم تلك المحن عن المواظبة على عبوديته، وهذا أعظم في العبودية. وأما قولهم: "المواظبة على نوع واحد من العبادة أشق" فيردّ بأنه "لما اعتادوا نوعا واحدا صاروا كالمجبورين الذين لا يقدرون على خلافه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أفضل الصوم صوم داود كان يصوم يوما ويفطر يوما". (البخاري الجعفي: 50/2). وقالوا: عبادات الملائكة أدوم؛ لأن أعمارهم أطول، فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام: "أفضل العباد من طال عمره، وحسن عمله". (بن الضحاك: 565/4).

ويعترض على هذا بالقول: إن نوحا ولقمان والخضر –عليهم الصلاة والسلام– كانوا أطول عمرا من محمد – عليه الصلاة والسلام – فوجب أن يكونوا أفضل منه، وذلك باطل بالاتفاق. (ابن عادل: 529/1). وأضافوا: أنهم أسبق في كل العبادات فيكونون أفضل لقوله تعالى: "والسابقون السابقون أولئك المقربون" (الواقعة 10)، ولقوله عليه الصلاة والسلام : "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة". (مسلم: 704/2).

ولقائل أن يقول: فهذا يقتضي أن يكون آدم –عليه الصلاة والسلام– أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أول من سن عبادة الله من البشر وأسبق، وذلك باطل. (أبي طالب حَمّوش: 4249/6).

فقال ابن عادل: إنّ الملائكة رسل إلى الأنبياء، والرسول أفضل من الأمة، بمعنى أنه يؤكد قول القائلين بأن الرسل أفضل، بدلالة عقلية لا بدلالة نقلية، وهي أنّ الملائكة حملت أمرا إلى من يكون له شأن في حياة قومه فهو أفضل منها. فالرسل –في رأيه– أفضل خلق الله قاطبة، والملائكة خلق من خلق الله جل وعلا، وهذا ما يميل إليه الباحث، بدليل أن من كان ذا مال وسلطان لكنه يتقي الله جل وعلا ولا يعصيه، وهو قادر على أن يفعل ما يشاء بماله وجاهه، والمعصية سهلة الارتكاب، لكنه يستعظم فعلها، فهو عند الله أفضل من عبد فقير لا يملك مقومات المعصية التي امتلكها ذو المال والجاه، وإن كانا في العبادة والتقوى سواء، فالملائكة مجبولة على عدم المعصية، لا توجد بها شهوة المعصية، لكن الإنسان يقع تحت سلطان المعصية الملحة لكنه يتقي ربه ويخافه فهو حتما أفضل عند الله جل وعلا.

القول في إرسال واحد لجمع من الناس وإرسال واحد لرجل واحد لا غير:

فإن قيل: إن السلطان إذا أرسل واحدا إلى جمع عظيم ليكون حاكما فيهم، فإنه يكون أشرف منهم، أما إذا أرسل واحدا إلى أحدٍ، فقد لا يكون الرسول أشرف، كما إذا أرسل السلطان مملوكه إلى وزيره في مهمة فإنه لا يلزم أن يكون ذلك العبد أشرف من الوزير.

قال ابن عادل: "لكن جبريل – عليه السلام – مبعوث إلى كافة الأنبياء والرسل من البشر، فعلى هذا يكون جبريل أفضل منهم". وأيضا إن الملك قد يكون رسولا إلى ملك آخر أو إلى أحد من الأنبياء، وعلى التقديرين الملك رسول، وأمته رسل، والرسول الذي كان كل أمته رسل أفضل من الرسول الذي ليس كذلك، ولأن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – كان رسولا إلى لوط – عليه السلام – فكان أفضل منه، وموسى كان رسولا إلى الأنبياء الذين كانوا في عصره، فكان أفضل منهم.

ولقائل أن يقول: الملك إذا أرسل رسولا إلى بعض النواحي، فقد يكون ذلك الرسول حاكما ومتوليا أمورهم، وقد يكون ليخبرهم عن بعض الأمور مع أنه لا يجعله حاكما عليهم، فالقسم الأول هم الأنبياء المبعوثون إلى أممهم، فلا جرم أن يكونوا أفضل من الأنبياء. وهذا القول في رأي الباحث لا يخرج عما ورد فيما قبله، وإنما هو زيادة بيان ومحاججة لتقوية رأيه فيما سبق، إلا أنّ المتأمل لإجراءات ابن عادل يلحظ ذكاء في عرض الآراء، وفهما دقيقا لما قد يدور في اذهان الناس، وذلك بافتراض أسئلة بعينها، وهذا ما امتاز به كثير من المفسرين، وقد لا ينتبه لها كثير من طلبة العلم.

المفاضلة بين المسيح والملائكة:

قال تعالى: "لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون" (النساء 172) فقوله: "ولا الملائكة" خرج مخرج التأكيد للأول، وهذا التأكيد إنما يكون بذكر الأفضل يقال: هذه الخشبة لا يقدر على حملها العشرة، ولا المائة، ولا يقال: لا يقدر على حملها العشرة ولا الواحد، ويقال: هذا العالم لا يستنكف عن خدمته الوزير ولا الملك، ولا يقال: ولا يستنكف عن خدمته الوزير ولا البواب.

ولقائل أن يقول: هذه الآية إن دلت، فإنما تدل على فضل الملائكة المقربين على المسيح، لكن لا يلزم منه فضل الملائكة المقربين على من هو أفضل من المسيح، وهو محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام – وموسى وإبراهيم – عليهما الصلاة والسلام – بإجماع المسلمين. ثم نقول إن قوله: "ولا الملائكة" ليس فيه إلا "واو" العطف، و"الواو" للجمع المطلق، فيدل على أن المسيح لا يستنكف، والملائكة لا يستنكفون، فأما أن يدل على أن الملائكة أفضل من المسيح فلا. (ابن عادل: 533/1).

قال تعالى: "لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد" (المائدة 2) أو نقول: سلمنا أن عيسى دون مجموع الملائكة في الفضل، فإن قلتم: دون كل واحد من الملائكة في الفضل أو فإن قيل: وصف الملائكة بكونهم مقربين يوجب ألا يكون المسيح كذلك. قلنا: تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفيه عما عداه.

(مصطفى درويش: 1415هـ).

ويزيد ابن عادل توضيحا في هذه المفاضلة ببيان الفرق بين علم الملك وعلم الملائكة، فيورد قوله تعالى: "قل لا أقول لكم عندي خزآئن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك" (هود 31) ويتساءل فلقائل أن يقول: يحتمل أن يكون المراد: ولا أقول لكم إني ملك في كثرة العلوم، وشدة القوة، ويؤيده أن الكفار طالبوه بأمور عظيمة نحو: صعود السماء، ونقل الجبال، وإحضار الأموال العظيمة. وأيضا قوله: "قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله" (الأنعام 50) يدل على اعترافه بأنه لا يعلم كل المعلومات، فلذلك لا أدعي قدرة مثل قدرة الملك، ولا علما مثل علمه. وزيادة في التبيين يشرح ابن عادل دلالة وصف يوسف عليه السلام بالملك. في قوله تعالى: "ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم" (يوسف 31).

ففي الآية بلاغة ينبغي معرفتها، فيها التشبيه البليغ وهو الذي حذفت منه أداة التشبيه كقولنا محمد أسد فقد شبهن يوسف بالملك من دون ذكر الأداة وهذا واضح كما قلنا يجري على غرار التشبيهات المألوفة المقصود منها إثبات الحسن لأنه تعالى ركب في الطبائع أن لا شيء أحسن من الملك، وقد عاين ذلك قوم لوط في ضيف إبراهيم من الملائكة، كما ركب في الطباع أن لا شيء أقبح من الشيطان. وكذلك قوله تعالى في صفة جهنم "طلعها كأنه رؤوس الشياطين" فكذلك قد تقرر أن لا شيء أحسن من الملك، فلما أرادت النسوة وصف يوسف بالحسن شبهنه بالملك. ولكن الأسلوب القرآني شاء أن يتجاوز المألوف من تشبيهات العرب لكل ما راعهم حسنه من البشر بالجن فأدخل فيه فنا آخر لا يبدو للناظر للوهلة الأولى، وهو فن عرفوه بأنه سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو ليدل- كما هو هنا- على شدة الوله في الحب وقد يقصد به الذم أو التعجب أو التوبيخ أو التقرير ويسمى هذا الفن تجاهل العارف. (ابن عادل: 534).

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد التشبيه في الجمال؟ يقول ابن عادل الدمشقي: الأولى أن يكون هذا التشبيه في السيرة لا في الصورة، لأن الملك إنما تكون سيرته المرضية لا بمجرد الصورة. (أبو العباس: 165/1). وإذا سلمنا أن المراد تشبيه يوسف – عليه الصلاة والسلام – بالملك في حسن السيرة، فلم يقال: يجب أن يكون أقل ثوابا من الملائكة؟

في هذا العرض الذي أبدع فيه ابن عادل، وما رأينا فيه من تمكن من فن البلاغة، لم نهتد فيه إلى رأيه وترجيحه بل إنه لم يجب عن آخر سؤال افترضه، لكن الباحث فهم أن الوصف بالكمال لا يعني التفضيل، وكل ما دار من نقاش بين هؤلاء العلماء وما أورده ابن عادل مازال من آراء مختلفة أعزوها إلى التبيعض الذي جاء في قوله تعالى في سورة الإسراء "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" (الإسراء 70)، فقوله جل وعلا (ممن خلقنا) جعل التفضيل غير مطلق لبني آدم، ثم إننا لا نعلم ما خلق الله كما جاء في قوله تعالى في سورة النحل: "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ" (النحل: 8) فعدم علمنا بخلق الله قد يشمل خلقا لم يذكرهم الله من الأصناف التي ذكرت في القرآن. لكن اجتهاد هؤلاء العلماء له أسبابه، فعلى قارئ القرآن التدبر وتعويد عقله على طرح مثل هذه الأسئلة الافتراضية، أمّ الوصول إلى الإجابات فذاك توفيق من الله يؤتيه من يشاء من عباده.

المفاضلة بين المكلفين:

قوله تعالى: "وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (الإسراء 70)، ومخلوقات الله – تعالى – إما المكلفون، أو من عداهم، ولا شك أن المكلفين أفضل من غيرهم، فالمكلفون أربعة أنواع: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين، ولا شك أن الإنس أفضل من الجن والشياطين، فلو كان البشر أفضل من الملائكة للزم أن يكون أفضل من كل المخلوقات، وحينئذ يكون القول في غير القرآن: "وفضلناهم على جميع من خلقنا"، ولما لم يقل ذلك علمنا أن الملك أفضل من البشر، وقوله تعالى: "وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين" (الانفطار 11) يدخل فيه الأنبياء وغيرهم، وهذا يقتضي كونهم أفضل من البشر لوجهين:

الأول: أنه –تعالى– جعلهم حفظة، والحافظ للمكلف عن المعصية يكون أبعد عن الخطأ من المحفوظ، وذلك يقتضي أن يكون قولهم أولى بالقبول من قول البشر، ولو كان البشر أعظم حالا منهم لكان الأمر بالعكس.

ولقائل أن يقول: أما كون الحافظ أكرم من المحفوظ فبعيد، فإن الملك قد يوكّل بعض عبيده على ولده.

وأما الثاني: فقد يكون الشاهد أدون حالا من المشهود عليه، بمعنى أن الأمين يكلف على من دونه.

ويضيف ابن عادل في مكان آخر قوله تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن" (النبأ 38). والمقصود من ذكر أحوالهم المبالغة في شرح عظمة الله وجلاله، ولو كان في الخلق طائفة أخرى قيامهم وتضرعهم أقوى في الإنباء عن عظمة الله وجلاله وكبريائه من قيامهم لكان ذكرهم أولى.

ولقائل أن يقول: ذلك يدل على أنهم أزيد حالا من البشر في بعض الأمور، فلم لا يجوز أن تكون تلك الحالة هي قوتهم وشدتهم وبطشهم؟ وهذا كما يقال: إن السلطان لما جلس وقف حول سريره ملوك أطراف العالم خاضعين فإن عظمة السلطان إنما تشرح بذلك، ثم إن هذا لا يدل على أنهم أكرم عند السلطان من ولده، فكذا ها هنا.. ولله المثل الأعلى – فهم في هذا الموقف موقف تعظيم لا موقف مفاضلة، وكما جاء في قوله تعالى: "والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله" (البقرة 285) فبيّن تعالى أنه لا بد، لصحة الإيمان وتحقيق أركانه، (مصطفى درويش: 147/4). من الإيمان بهذه الأشياء، فبدأ بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلث بالكتب، وربّع بالرسل، وكذا في قوله: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم" (آل عمران 7)، وقال: "إن الله وملائكته يصلون على النبي"، والتقديم في الذكر يدل على التقديم في الدرجة؛ لأن تقديم الأدون –أي الأدنى– على الأشرف في الذكر قبيح عرفا، فوجب أن يكون قبيحا شرعا.

ولقائل أن يقول: هذه الحجة ضعيفة؛ لأن الاعتماد إن كان على "الواو" فهي لا تفيد الترتيب، وإن كان على التقديم في الذكر فإن ذلك ينتقض بتقديم سورة "تبت" على سورة الإخلاص، وهذا التضعيف في رأي الباحث أضعف، فترتيب السور ليس للمفاضلة، ولا أدري من أين جاء ابن عادل بهذا الرأي، فهو لم يذكر لنا قائله. ونخلص من هذه المسالة إلى أن ابن عادل لم يكن ذا رأي واضح جلي في المسألة، وهذا ما لاحظه الباحث في كثير من المسائل في كتاب اللباب، وربما يكون ذلك راجعًا إلى غموض رأي ابن عادل في بعض المسائل، ثم إن ابن عادل (رحمه الله) يقول: إن المكلفين أربعة أنواع: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين، وإذا سلمنا بهذا لأن هذه الأصناف هي التي ذكرت في القرآن الكريم، فإننا لا نجزم بأنهم هم وحدهم المكلفون، فقد يكون هناك خلق آخر من خلق الله مكلفون من غير هذه الأصناف، (ويخلق ما لا تعلمون) ثم إننا لم نجد، لا في الكتاب ولا الأثر، ما يفيد بأن هذه الأصناف الأربعة هي وحدها المكلفة. والله أعلم.

القائلون بتفضيل الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – على الملائكة:

اختلف العلماء في أن المؤمنين الصالحين عند الله أفضل من عموم الملائكة، ففريق قال إن الملائكة أفضل من البشر بدليل حديث النبي "ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه" فعلم أن ملأ الملائكة أفضل من ملأ البشر، والفريق الآخر رد عليهم وقال إن هذا ليس لفضل فيهم فإن ملأ فيه الله أفضل من أي ملأ آخر، وفريق ثالث قال إن البشر أفضل من الملائكة لأن الملائكة مخلوقة على عبادة الله بصورة إجبارية بغير البشر الذين يعبدون الله باختيارهم إلا أنّ ما يهمنا هنا هو نقاش ابن عادل للمسألة.

معيار السجود في المفاضلة بين آدم عليه السلام والملائكة:

يذكر ابن عادل وغيره أن الله – سبحانه وتعالى – أمر الملائكة بالسجود لآدم، وثبت أن آدم لم يكن كالقبلة، فوجب أن يكون آدم أفضل منهم؛ لأن السجود نهاية التواضع، وتكليف الأشرف بنهاية التواضع للأدون مستقبح في العقول. (ابن عادل: 536/1). ويضيف ابن عادل: "إنّ آدم – عليه الصلاة والسلام – خليفة لله، والمراد منه خلافة الولاية لقوله: "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق". (ص: 26)

ومعلوم أن أعلى الناس منصبا عند الملك من البشر من كان قائما مقامه في الولاية والتصرف كابنه أو زوجه ومن في حكمهما، فهذا يدل على أن آدم – عليه الصلاة والسلام – كان أشرف الخلائق. فالدنيا خلقت متعة لبقائه، والآخرة مملكة لجزائه، وصارت الشياطين ملعونين بسبب التكبر عليه، والجن رعيته، والملائكة في طاعته وسجوده، والتواضع له، ثم صار بعضهم حافظين له ولذريته، وبعضهم منزلين لرزقه وبعضهم مستغفرين لزلاته. ولتبيان المفاضلة يشرح ابن عادل القول بأن آدم – عليه الصلاة والسلام – كان أعلم، والأعلم أفضل، أما أنه أعلم فلأنه – تعالى – لما طلب منهم علم الأسماء "قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا" (البقرة 32) فعند ذلك قال الله: "يا آدم أنبئهم بأسمائهم" (البقرة 33) وذلك يدل على أن آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالما بما لم يكونوا عالمين به، والعالم أفضل لقوله تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (الزمر 9) ثم يبين ابن عادل معيار العلم وأثره في المفاضلة مسندا لقوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين"

(آل عمران 33). والعالم عبارة عن كل ما سوى الله – تعالى – فمعناه أن الله – تعالى – اصطفاهم على المخلوقات. وهذا يشكل بقوله تعالى: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين" (البقرة 40).

قال ابن عادل: "يقول: الإشكال مدفوع؛ لأن قوله: "وأني فضلتكم على العالمين" خطاب مع الأنبياء الذين كانوا أسلاف اليهود، وحينما كانوا موجودين لم يكن محمد – عليه الصلاة والسلام – موجودا في ذلك الزمان، والمعدوم لا يكون من العالمين"؛ (خطيب الرازي: 444/2) لأن اشتقاق العالم من العلم فكل ما كان علما على الله ودليلا عليه فهو عالم، وإذا كان كذلك لم يلزم اصطفاء الله إياهم على العالمين في ذلك الوقت أن يكونوا أفضل من محمد – عليه الصلاة والسلام – والملائكة كانوا موجودين، فيلزم أن يكون الله – تعالى – قد اصطفى هؤلاء على الملائكة، وأيضا فهب أن تلك دخلها التخصيص لقيام الدليل، وها هنا فلا دليل يوجب ترك الظاهر، فوجب إجراؤه على ظاهره في العموم.

ثم ينتقل ابن عادل إلى وجه آخر من المفاضلة وهو أنّ الآدمي له شهوة تدعوه إلى المعصية، وهي شهوة الرئاسة. (بن حيان: 260/1). ولتوضيح هذا يذهب إلى القول: لنفترض أن الأمر كذلك، فالبشر لهم أنواع كثيرة من الشهوات مثل شهوة البطن والفرج، وشهوة الرئاسة والملك ليس إلا شهوة واحدة، وهي شهوة الرئاسة، والطاعة على المبتلى بأنواع كثيرة من الشهوات تكون أشق من المبتلى بشهوة واحدة. وأيضا الملائكة لا يعملون إلا بالنص لقوله: "لا علم لنا إلا ما علمتنا" (البقرة 32) وقوله: "لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون" (الأنبياء 27)، والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس، والعمل بالاستنباط أشق من العمل النص، وأيضا فإن الشبهات للبشر أكثر منها للملائكة؛ لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السيارة أسبابا لحوادث هذا العالم، فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة، والملائكة لا يحتاجون إليها، لأنهم ساكنون في عالم السماوات، فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبر الصانع، وأيضا فإن الشيطان لا سبيل له إلى وسوسة الملائكة، وهو مسلط على البشر في الوسوسة، وذلك تفاوت عظيم. (ابن عادل: 537/1). إذا ثبت أن طاعتهم أشق، فوجب أن يكونوا أكثر ثوابا للنص والقياس.

فأما قوله عليه الصلاة والسلام: "أفضل العبادات أحمزها" أي: أشقها، وأما القياس فإن الشيخ الذي ليس له ميل إلى النساء إذا امتنع عن الزنا ليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنه مع الميل الشديد، والشوق العظيم. (أضواء البيان: 5/8). ثم يأتي العقل فقد خلق الله – تعالى – للملائكة عقولا بلا شهوة، وخلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخلق الآدمي وجمع فيه الأمرين، فصار الآدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجة، فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة، ثم وجدنا الآدمي هواه عقله، فإنه يصير دون البهيمة على ما قال: "أولئك كالأنعام بل هم أضل" (الأعراف 179) فيجب أن يقال: إذا غلب عقله هواه فإنه يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر، ثم إن الملائكة حفظة، وبنو آدم محفوظون، والمحفوظ أشرف من الحافظ، كالحارس والمحروس، فأجاب القائلون بتفضيل الملك عن الأول، فقالوا: قد سبق بيان أن من الناس من قال: المراد من السجود التواضع لا وضع الجبهة على الأرض وإن سلم أنه وضع الجبهة لكنه قال: السجود لله وآدم قبله، فزال الإشكال، وإن سلم أن السجود كان لآدم، فلم قلتم: إن ذلك لا يجوز من الأشرف؟ وذلك لأن الحكمة قد تقتضي إظهار نهاية الانقياد، والطاعة، فإن للسلطان أن يجلس عبدا من عبيده، ويأمر الأكابر بخدمته ويكون غرضه إظهار كونهم مطيعين منقادين له في كليات الأمور، وأيضا فإن الله – تعالى – يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فإن أفعاله غير معللة، ولذلك قلنا: إنه لا اعتراض عليه في خلق الكفر في الإنسان، ثم يعذبه عليه أبد الآباد، وإذا كان كذلك، فكيف يعترض عليه في أن أمر الأعلى بالسجود لمن هو دونه؟

وأما الحجة الثانية فجوابها أن كون آدم خليفة في الأرض يقتضي أن يكون آدم – عليه السلام – أشرف من كل من في الأرض، وهذا لا يدل على كونه أشرف من ملائكة السماء. ثم يتطرق ابن عادل لمسألة علم آدم الأسماء كلها فيقول: فلا نسلم أن آدم كان أعلم منهم، وأكثر ما في الباب أن آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالما بتلك اللغات، وهم ما علموها، ولعلهم كانوا عالمين بسائر الأشياء، مع أن آدم – عليه السلام – ما كان عالما بها، ويحقق هذا أن محمدا – عليه أفضل الصلاة والسلام – أفضل من آدم – عليه السلام – مع أن محمدا ما كان عالما بهذه اللغات بأسرها، وأيضا فإن "إبليس" كان عالما بأن قرب الشجرة مما يوجب خروج آدم من الجنة، وآدم – عليه السلام – لم يكن على علم بذلك، والهدهد قال لسليمان صلوات الله وسلامه عليه: "أحطت بما لم تحط به" (النمل 22)، ولم يكن أفضل من سليمان، سلمنا أنه كان أعلم منهم، ولكن لِمَ لم يجز أن يقال: إن طاعتهم أكثر إخلاصا من طاعة آدم عليه الصلاة والسلام؟. وأما الحجة الرابعة: فهي قوية.

وأما الحجة التي تقول: إن عبادة البشر أشق، فهذا ينتقض بما أنا نرى الواحد من الصوفية يتحمل في طريق المجاهدة من المشاق والمتاعب ما يقطع بأنه – عليه الصلاة والسلام – لم يتحمل مثلها مع أنا نعلم أن محمدا عليه الصلاة والسلام أفضل من الكل.

1. ثم يتساءل ابن عادل: "فإن قيل: فإذا لم يكن أفضل منهم– يقصد آدم عليه السلام– فما الحكمة بالأمر بالسجود له؟ قيل له: إن الملائكة لما استعظموا تسبيحهم (بن تيمية: 403/5)، وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم، وعن عبادتهم. وقال بعضهم: عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به، فأمروا بالسجود له تكريما، ويحتمل أن يكون إنما أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم: "أتجعل فيها من يفسد فيها" (البقرة 30). فإن قيل: فقد استدل ابن عباس – رضي الله تعالى عنه – على فضل البشر بأن الله – تعالى – أقسم بحياة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ" (الحجر 72)... وقال للملائكة: "ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم" (الأنبياء 29). قيل له: إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه فلم يقل: "لعمري" وأقسم بالسماء والأرض، ولم يدل على أنها أرفع قدرا من العرش، وأقسم بـ"التين والزيتون".

2. وهنا يرى الباحث أن ابن عادل الدمشقي قد بنى إجاباته على الاحتمال الناتج عن نشاط عقلي استنتاجي – أفرد له الباحث بحثا آخر – ولم يأت بدليل نقلي، إنما يحلل آراء مختلفة، وهذا ما يميز ابن عادل في المسائل العقلية التي تفتقر إلى الدليل، ثم إنه قد جاء في مباحث في الفصل الأول ما يبين أن المكلف المجبول على الطاعة لا يكون مثل المكلف ذي الاختيار، أي ذي الشهوة. ثم إن هناك فرقًا بين الصنفين، فصنف الملائكة موكل بأمر السماء، أما الأرض وخلقها فيكون أفضل خلقها هم الأنبياء. والملاحظ أن ابن عادل لم يذكر شيئا عن اتفاق علماء المسلمين على أنّ الحكمة من أفعال الله جل وعلا ليست ظاهرة في كثير من الأحيان، وما قد يصل إليه البشر قد لا يكون هو مراد الله جل وعلا، لكنهم –أي العلماء– لم يمنعوا التدبر لأن التدبر وارد بنص القرآن. وأحسب أنّ ابن عادل مدرك لهذه الحقيقة فهو يطلق العنان لعقله، كما فعل أسلافه من المفسرين، بحثا عن لماذا وكيف وكل أدوات الاستفهام حتى نصل أو نقترب من مراد الله ولذلك خلقنا. (جلال الدين السيوطي: 403/5).

ماهية إبليس ومسألة الزلل:

يفترض ابن عادل سؤالا قائلا: فإن قيل: لا نسلم أنه كان من الجن، لأن قوله: "كان من الجن" (الكهف 30) يجوز أن يكون المراد كان من الجنة على ما روي عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه كان من الجن كان خازن الجنة". (ابن عادل: 154/1). سلمنا ذلك، لكن لم لا يجوز أن يكون قوله: "من الجن" أي: صار من الجن كقوله: "وكان من الكافرين" (ص 74).

فيقال: فلم قلتم: إن كونه من الجن ينافي كونه من الملائكة؛ لأن الجن مأخوذ من الاجتنان، وهو الستر، ولهذا سمي الجنين جنينا لاجتنانه، ومنه الجنة لكونها ساترة، والجنة لكونها مستترة بالأغصان، ومنه الجنون لاستتار العقل به، والملائكة مستترون عن الأعين، فوجب جواز إطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة، يؤيد هذا التأويل قوله تعالى في الآية الأخرى: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا" (الصافات 185)، وذلك لأن قريشا قالت: "الملائكة بنات الله"، فهذه الآية تدل على أن الملائكة تسمى جنا. والجواب: لا يجوز أن يكون المراد من قوله: "كان من الجن" أنه كان خازن الجنة؛ لأن قوله: "إلا إبليس كان من الجن" يشعر بتعليل تركه السجود بكونه جنيا، ولا يمكن تعليل ترك السجود بكونه خازن الجنة، فبطل ذلك.

ويضاف إلى ذلك أن "إبليس" له ذرية لقوله تعالى: "أفتتخذونه وذريته أولياء" (الكهف 50) والملائكة لا ذرية لها؛ لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى، والملائكة لا أنثى فيها لقوله: "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم". (الزخرف: 19)، أنكر على من حكم عليهم بالأنوثة. وحجة أخرى : أن الملائكة معصومون، و "إبليس" لم يكن كذلك فوجب ألا يكون من الملائكة. كما يضاف : أن "إبليس" مخلوق من نار لقوله تعالى حكاية عنه: "خلقتني من نار". (ص: 76). قال: "والجآن خلقناه من قبل من نار السموم" والملائكة مخلوقون من النور، لما روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار".

وحجة القول الثاني، وهو أن "إبليس" كان من الملائكة، وذلك أن الله – تعالى – استثناه من الملائكة، والاستثناء المنقطع مشهور في كلام العرب، قال الله تعالى: "وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني" وقال: "لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما" وقال: "لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما" (مريم: 62)، وقال: "لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض"... وأيضا فلأنه كان جنيا واحدا بين الألوف من الملائكة، فغلبوا عليه في قوله: فسجدوا، ثم استثني هو منهم استثناء واحد منهم لأنا نقول: كل واحد من هذين الوجهين على خلاف الأصل، وذلك إنما يصار إليه عند الضرورة، والأدلة التي ذكرتموها في نفي كونه من الملائكة ليس فيها إلا الاعتماد على العمومات، فلو جعلنا من الملائكة لزم تخصيص ما عولتم عليه من العمومات.

ولو قلنا: إنه ليس من الملائكة لزمنا جعل الاستثناء منقطعا، فكان قولنا أولى، وأيضا فالاستثناء إنما يتحقق من الشيء والصرف، ومعنى الصرف إنما يتحقق حيث لولا الصرف لدخل، والشيء لا يدخل في غير جنسه، فيمتنع تحقق معنى الاستثناء منه.

وأما قوله: إنه جني واحد من الملائكة لما كان قوله: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا" متناولا، ولا استحال أن يكون تركه السجود إباء واستكبارا ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، ولما حصلت هذه الأمور، علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله، ولن يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة. لا يقال: إنه وإن لم يكن من الملائكة إلا أنه لما نشأ منهم، وطالت خلطته بهم والتصق بهم علا ولكن الله تعالى أمر بالسجود بلفظ آخر ما حكاه في القرآن بدليل قوله: "ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك" (الأعراف 12). لأنا نقول: أما الأول فجوابه: أن المخالطة لا توجب ما ذكرتموه ولهذا قيل في أصول الفقه: "خطاب الذكور لا يتناول الإناث وبالعكس" مع شدة المخالطة بين الصنفين، وأيضا فشدة المخالطة بين الملائكة وإبليس لما لم يمنع اقتصار اللعن على إبليس، فكيف يمنع اقتصار ذلك التكليف على الملائكة، لونا كونه أمر بأمر آخر غير محكي في القرآن، فإن ترتيب الحكم على الوصف يشعر بالغلبة، فلما ذكر قوله: "أبى واستكبر" عقيب قوله: "وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم"، أشعر هذا التعقيب بأن هذا الإباء إنما حصل بسبب مخالفة هذا الأمر، لا بسبب مخالطة أمر آخر، وطريق الجمع بين الدليلين ما ذكرنا عن ابن عباس أن "إبليس" كان من الملائكة، فلما عصى الله غضب عليه، فصار شيطانا. (الماوردي: 314/3).

وقول سعيد بن جبير إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار، وإبليس منهم وليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشهوة حيث غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة، وحكى الثعلبي عن ابن عباس: "أن إبليس كان من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: الجن خلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور، وكان اسمه بالسريانية

عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خزان الجنة، وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان من سلطانها، وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علما، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة، فذلك الذي دعاه إلى الكفر، فعصى الله، فمسخه شيطانا رجيما". (ابن عادل: 537/1).

ثم ينتقل ابن عادل إلى توضيح مسألة الزلل في قوله تعالى: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ". فإن قيل: إن الله – تعالى – قد أضاف الإزلال إلى إبليس فلم عاتبهما على ذلك الفعل؟ فالجواب: أن قوله: "فأزلهما" أنهما عند وسوسته أتيا بذلك الفعل، وأضيف ذلك إلى إبليس كما في قوله: "فلم يزدهم دعائي إلا فرارا" (نوح: 6). قال تعالى حاكيا عن إبليس: "وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي" (إبراهيم: 22)، هذا قول المعتزلة، والتحقيق في هذه الإضافة ما ذكرناه، وهو أن القادر على الفعل والترك مع التساوي يستحيل أن يكون مُوجِدا لأحد هذين الأمرين إلا عند انضمام الداعي إليه، والداعي في حق العبد عبارة عن علم أو ظن، أو اعتقاد بكون الفعل مشتملا على مصلحة، فإذا حصل ذلك العلم أو الظن بسبب منبه نبه عليه كان الفعل مضافا إلى ذلك المنبه؛ لأنه هو الفاعل لما لأجله صار الفاعل بالقوة فاعلا بالفعل، فهكذا المعنى انضاف – ها هنا – إلى الوسوسة.

ثم يذهب ابن عادل إلى تبيين مسالة الوسوسة بافتراض سؤال قائلا: "فإن قيل: كيف كانت الوسوسة"؟ فيجيب قائلا: "هي التي حكى الله عنها في قوله: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين" فلم يقبلا ذلك منه، فلما آيس عدل إلى اليمين على ما قال تعالى: "وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين" (الأعراف: 21) فلم يصدقاه. والظاهر أنه بعد ذلك عدل إلى شيء آخر، وهو أنه شغلهما باستيفاء الذات المباحة حتى صارا مستغرقين فيها، فحصل بسبب استغراقهما فيها نسيان النهي، فعند ذلك حصل ما حصل. والله اعلم.

واختلفوا في أنه كيف تمكّن إبليس من وسوسة آدم عليه الصلاة والسلام مع أن إبليس كان خارج الجنة، وآدم عليه الصلاة والسلام داخل الجنة؟ وذكروا فيه وجوها:

3. **أحدها**: ما روي عن وهب بن منبه والسدي عن ابن عباس وغيره: أن إبليس أراد دخول الجنة، فمنعته الخزنة، فأتى الحية بعدما عرض نفسه على سائر الحيوانات فما قبله واحد من الحيوانات، فابتلعته الحية وأدخلته الجنة خفية من الخزنة، فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فيها واشتغل بالوسوسة، فلا جرم لعنت الحية، وسقطت قوائمها، وصارت تمشي على بطنها، وجعل رزقها في التراب، وصارت عدوا لبني آدم، وأمرنا بقتلها في الحل والحرم. (ابن عادل: 562/1)• وقيل: وهذا وأمثاله يجب ألا يلتفت إليه؛ لأن إبليس لو قدر على الدخول في فم الحية فلم لا يقدر على أن يجعل نفسه حية ثم يدخل الجنة؟ ولأن الحية لو فعلت ذلك، فلم عوقبت مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة؟ وأيضا فلما خرج من بطنها صارت في الجنة كانت الملائكة والخزنة يرونه. (https://islamqa.info/ar/answers/177709).

وثانيها: أن "إبليس" دخل الجنة في صورة دابة، وهذا القول أقل فسادا من الأول.

وثالثها: قال بعض أهل الأصول: لعل آدم وحواء – عليهما السلام – كانا يخرجان إلى باب الجنة، وإبليس كان بقرب الماء يوسوس لهما.

ورابعها: قال الحسن: كان إبليس في الأرض، وأوصل الوسوسة إليهما في الجنة. قال بعضهم: هذا بعيد؛ لأن الوسوسة كلام خفي، والكلام الخفي لا يمكن إيصاله من الأرض إلى السماء. واختلفوا في أن إبليس باشر خطابهما، أو أوصل الوسوسة إليهما على لسان بعض أتباعه.

حجة الأول: قوله تعالى: "وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين" "فدلاهما بغرور" (الأعراف 22). **وحجة الثاني**: أن آدم وحواء – عليهما الصلاة والسلام – كانا يعرفانه، ويعرفان ما عنده من العداوة والحسد، فيستحيل في العادة أن يقبلا قوله، فلا بد وأن يكون المباشر للوسوسة بعض أتباع إبليس. وقد يجاب –الكلام لابن عادل الدمشقي– عن هذا بأن إبليس لما خالف أمر ربه ولعن لعله انتقل من تلك الصورة التي يعرف بها إلى صورة أخرى، ولعل إبليس تشكل لهما في صورة لا يعرفانها، فإن له قدرة التشكل. والله أعلم.

مما سبق يتبن أنّ ابن عادل يملك دراية لغوية فذة، سواء في المفردات أو في العلاقات النحوية، كما تبين اعتماده على الظن — نشاطا عقليا — لإثبات عدم تأكده من المسألة وذلك حين قال "والظاهر أنه بعد ذلك عدل إلى شيء آخر" فهو يظن في القائل بفكرة ما، ثم يثبت ما ذهب إليه الباحث في وصف ابن عادل بالظن قوله في نهاية المسألة (والله أعلم) وهذا ليس من عادته في عرض المسائل إلا حينما يدلي برأيه دون دليل نقلي، كما يستخدم (لعل) كما في قوله (لعله انتقل من تلك الصورة) وكأنه يقول هذا ظن مني، قد يكون صحيحا وقد لا يكون.

أمّا استعماله جملة (قد يجاب) فإنها دلالة على عدم يقينية الإجابة ، فإن الباحث قد وجد في أماكن أخرى من كتاب اللباب أن ابن عادل يقول: (ويجاب على ذلك) بصيغة التأكيد، وذلك إما لوجود دليل نقلي أو عقلي هو مؤمن به.

الخاتمة:

نستخلص من هذا البحث النقاط الآتية:

• -

أولا: أن الخلاف بين العلماء معروف وما زال قائما.

ثانيا: أن بعضهم قال: إنّ الشيطان من الملائكة، ثم طرد ولعن.

ثالثا: وبعض أهل العلم قال: إنه من الجن، وأن الطائفة التي كان منها هم الجن، ولهذا بين سبحانه أنه كان من الجن، والجن هم المعروفون، هم الثقل الثاني. كما قال بعض أهل العلم: هو أبوهم، كما أن آدم هو أبو الإنس، فهو أبو الجن، وفيهم الشياطين، وهم المردة.

رابعا: قال بعض أهل العلم: إن الجن طائفة من الملائكة يقال لهم: الجن؛ لأنهم استجنوا، اختفوا، فقيل لهم: الجن، وهم من الملائكة، وهذان القولان مشهوران.

خامسا: ذهب جماعة من المحققين إلى ترجيح أن الجن غير الملائكة، وأنه كان مع الملائكة يصلي معهم، ويتعبد معهم، فعمّه الأمر، فلما أبى، وفسق، وتكبر؛ لعن وطرد، وصار من ذريته الشياطين، والجن منهم المؤمن، ومنهم الفاسق، ومنهم الكافر.

سادسا: يرجح ابن عادل الدمشقي القول المشهور عن العلماء أنه من الملائكة، وأنه طرد لما استكبر، وأن الجن طائفة من الملائكة، يقال لهم: الجن. وعارض هذا الرأي آخرون فقالوا: لا، الجن هم الثقل الثاني المعروفون ...وأنهم ليسوا من الملائكة، وأن الملائكة خلقوا من النور، والجن خلقوا من النار، فهو ليس من الملائكة في العنصر، عنصر الملائكة من النور، وعنصره من النار، فليس منهم في العنصر، ولا في الحقيقة، ولكنه كان معهم، فلما أمر بالسجود؛ لم يسجد، وتكبر، وعصى، فطرده الله، وأبعده، ولعنه. ولهذا اختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وجماعة، وقالوا: إنه من الجن، وهو أبوهم، خلقه الله من مارج من نار، وليس من الملائكة، ولكنه كان معهم في السماء، كان يتعبد، فلما استكبر؛ طرد ولعن.

سابعا: وفهم الباحث أن ابن عادل يؤيد القول بأن الملائكة عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد خلقهم الله وجبلهم على طاعته وعبادته، فمنهم الموكل بالوحي، ومنهم الموكل بالأرزاق، ومنهم الموكل بالجبال، ومنهم المخلوق للعبادة والصلاة والتسبيح وذكر الله. ومثل هذه العبادة لا يطيقها بشر، ولا يقدرون عليها، والملائكة لا يفترون ولا يسأمون، والبشر ركّبت فيهم الطبيعة البشرية، بما فيهم أنبياء الله ورسله صلى الله عليهم وسلم، فهم يختلفون عن الملائكة في صفاتهم وطبائعهم. فالملائكة يقدرون في العبادة على ما لا يقدر عليه بشر. لكن ذلك لا يعني أنهم خير من الأنبياء، لأن عبادتهم أعظم أو أكثر؛ فالأنبياء بحكم كونهم بشرا، وفيهم طبيعة البشر، لما ارتفعوا إلى ذلك المقام العالي في طاعة ربهم، كانت لهم فضيلة خاصة، ومقام عظيم، حتى ذهب غير واحد من أهل العلم إلا أن الصالحين من البشر أفضل مقاما من الملائكة، لأن الملائكة ليس عندهم نوازع للشر أو العصيان، وأما صالحو البشر فعندهم هذه النوازع، غير أنهم يغالبونها ويقهرونها في طاعة الله.

المصادر والمراجع:

177709https://islamqa.info/ar/answers/

ابن عادل الدمشقي، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض: اللباب في علوم الناشر: بيروت/لبنان، دار الكتب العلمية – الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.

ابن عطية، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب، بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية – الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – الطبعة: 1419هـ.

أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، بيروت، الناشر: دار الفكر – الطبعة: 1420.

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الرازي، بيروت، الناشر: دار إحياء التراث العربي – الطبعة: الثالثة – 1420 هـ.

أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه الباب 69 ج6 ص 4249

تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ) المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام النشر: 1416هـ/،1995م.

صحيح مسلم مصدر سابق، كتاب الزّكاة، باب الحث على الصدقة.

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، بيروت الدر المنثور، دار الفكر.

القاضي العلامة، رئيس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر، أبو عبد الله، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي .أحد الأذكياء الموصوفين، ومن أصحاب الوجوه في المذهب. وكان متفننا، سيال الذهن، مناظرا، طويل الباع في الأدب والبيان. أخذ عن: الأستاذ أبي بكر القفال، والإمام أبي بكر الأودني وحدث عن: خلف بن محمد الخيام، وأبي بكر محمد بن أحمد بن خنب، وبكر بن محمد المروزي الدخميني وجماعة. ولد في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فقيل: إنه ولد بجرجان، وحمل، فنشأ ببخارى، وقيل: بل ولد ببخارى. وله مصنفات نفيسة. سير أعلام النبلاء. الكلام لابن عادل

الماوردي: المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، النكت والعيون، بيروت/لبنان، الناشر: دار الكتب العلمية.

محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغدادي، أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق، الجامع الصحيح المختصر، اليمامة–بيروت، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، 1407 – 1987م.

محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى المحقق: بشار عواد معروف، سنن الترمذي، بيروت، الناشر: دار الغرب الإسلامي – أبواب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن.

محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، إعراب القرآن وبيانه، حمص – سورية، دار الإرشاد للشئون الجامعية –، (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة: الرابعة، 1415 هـ 394/2 وابن عادل الدمشقي للباب 475/10 وينظر الألوسي: المحقق: علي عبد الباري عطية: بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1415هـ.

محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر إعراب القرآن وبيانه: حمص، سورية: دار الإرشاد للشئون الجامعية –، الطبعة: الرابعة، 1415هـ.